كتب

في كتابه «هل الأدب مُجدٍ؟»، يُفكّك الأكاديمي الفرنسي تلك المفارقة بين هوس ربح الوقت لدى الجيل الجديد وبين بطء عمليَّتي الكتابة والقراءة، مُسائلاً عن مبدأ المردودية التي يمكن أن تُجنى من صناعة النصوص ونشرها في عالم يقيس كلّ شيء بمعيار الربح والرفاه

كيف دمّرت التحوّلات الرقمية بنية المعرفة؟

أنطوان كومبانيون عن جدوى الأدب

نجم الدين خلف الله

مع الضربات المتتالية التي تُوجّهها وسائل التواصل الاجتماعي وآليات الذكاء الاصطناعي إلى مسارَي الكتابة - القراءة بوصفهما نشاطاً فكرياً رصيناً، يعود السؤال عن قيمة هذا الفعل المزدوج وجدواه في «عصر السرعة» الذي تعاقبت فيه الأدوات الرقمية لتعوّض طاقات الإنسان اللغوية والإبداعية. ولهذا السؤال تصدّى الأكاديمي الفرنسي أنطوان كومبانيون (1950) في كتابه «هل الأدب مُجدٍ؟»، الصادر مؤخّراً عن «دار إيكواتيرز» في باريس، محلّلاً إشكالية جدوى الكتابة الأدبية بعد أن نزع البداهة، في دراساته السابقة، عن مفاهيمها النظرية، مع التركيز على «الطائل» من وراء إنتاج نصوص متماسكة البناء، تتطلّب جهداً كبيراً في إنشائها ونظمها حتى تستوي عملاً مكتمل الأركان، كما بحث في حجم الآثار التي يمكن أن تُحدثها في الجمهور المُعاصر، وهو جمهور شديد العجَلة عوّد فكرَه وأناملَه، كما يقول الفيلسوف الفرنسي ميشيل سار، على التلاعب بالشاشة والقفز على محتوياتها، من دون الاهتمام الفعلي بالكتابة ولا بمَن يكتب.

ضمن هذه المُحاولة، يُفكّك صاحب «شيطان النظرية» المفارقة الكُبرى بين الرغبة في ربح الوقت، وهو الهوس الذي يحكم أبناء عصرنا، والبطء الشديد الذي يميّز كلاً من الكتابة والقراءة. ويسائل مبدأ «المردودية» التي يمكن أن تُجنى من صناعة النصوص ونشرها في عالم يقيس كلّ شيء بمقياس الربح المالي والرفاه الشخصي، ومن ثمّ يخلص إلى البحث في مصير الأدب إنشاءً وتلقّياً في سياق يحكمه التكالب على الثراء المادي والكسب السريع، فضلاً عن بروز أدوات وعادات رقمية في القراءة، باتت تُحبّذ المضامين السريعة (منطق تيك توك) أو التصفّح العرَضي (منطق فيسبوك)، حيث تتقابل سرعة التعامل مع المضمون الأدبي التي تشارف على اللامبالاة، مع بطء إنتاج النصّ وإنضاجه حتى يستوي غذاءً للعقل.

وأمّا «الجدوى» التي حلّلها الكاتب هنا، فتحمل معنيَين اثنَين: أوّلهما ما يمكن أن يجنيه الكاتب من عمله الإبداعي مادياً ووَجاهياً، والثاني ما يمكن أن يجنيه القارئ من توسيع للمدارك وانفتاح على القيم العليا يترفعان عن تفاهات الحياة اليومية وأعراضها. ومن أجل التدليل على هذه الجدوى، أقام كومبانيون مقابلة بين الربح واللذّة، أي بين منطق الكسب العاجل ولذّة الأدب العميقة، مؤكّداً أنّ متعة الوجدان الناتجة عن تملي النصوص لا يمكن أن تضاهيها لذّة الكسب المادي ولا حتى أن تُقارن بها، فهما «خَلجتان» للنفس مختلفتا المدى والأثر.

وضمن التاريخ الثقافي للأدب، تُصوّر هذه المحاولة مرحلةً انتقالية في التعامل مع الكتب كأشياء مادية تحيل إلى أفكار ومعلوماتٍ وخيالاتٍ تتطلّب قدراً أدنى من التأنّي والتركيز لاستيعابها. هذا النوع من الاستيعاب بصدد الاندثار أمام هجمة الوسائط الاجتماعية التي، وإن حافظت على مبدأ القراءة للمنشورات، فإنها غيّرت محتواها بالتركيز على الجُمل القصيرة والملفوظات العارضة التي تمرّ بالمتصفّح مرّ السّحاب فلا يتّخذها مرجعاً إلّا نادراً. وبذلك، فإنّ بنية المعرفة العميقة هي التي تغيّرت بسبب هذه التحوّلات الرقمية التي جعلت الذهن كسولاً، يعزف عن الانتباه والتركيز. وهكذا، فهذه المحاولة صيحة ضدّ الاستهلاكية المفرطة التي صيّرت الإنسان «سلعةً تقتني سلعاً أُخرى» تحت وطأة الإشهار والتضليل. يستهلك البضائع المادية كما يستهلك الأخبار الزائفة والسريعة المتهافتة من دون حس نقدي. ولا شكّ أنّ القراءة، بما توفّره من لذّة وألم وتأمُّل، هي مَن يساعد على كسر طوق التقليد والاتباع الآلي للنسق الجمعي الذي بات يخنق الناس ويفرض عليهم وتيرة ضاغطة. وبهذه الصيحة، يُذكّر الكاتب أنّ «الأدب مجدٍ للغاية»، يُكسب صاحبَه معنى وجودياً عميقاً ينضاف إلى المعاني التخييلية التي يجتنيها أثناء القراءة، فتفيض عليه فوائد لا يمكن أن تقارَن بالربح المادي.

هذا الربح الذي طالما يُخطئه الكتّاب أنفسهم حين تُفرض عليهم قوانين سوق النشر، بما فيها من ضغوط بعد اشتعال أسعار الورق وانخفاض المبيعات وانصراف القارئ عن الكتاب الذي كان شيئاً ثقافياً وموضوعاً نفيساً يتبارى الناس في اقتنائه لاستكشاف ما فيه من الأفكار والمعلومات.

وهنا يضرب الكاتب أمثلة عديدة على أدباء فرنسيّين عانوا ويلات البؤس ولم يجنوا ثمرات أعمالهم، لا ربحاً مادياً ولا وجاهة اجتماعية أو سياسية، بل إنّهم لم يظفروا من حقوق طبعهم إلّا بالنزر اليسير. وبهذه الأمثلة، يكسر محظور البُعد المالي للأدب الذي يرى فيه «حركية إنتاجية» مثل غيرها من الحركيات المندمجة في الدورات الاقتصادية لأيّ بلد، ولا يمكن فهمها بمعزل عن هذه الدورة.

وبهذا التحليل يكون الكاتب قد تصدّى لثلاثية الكتابة والقراءة والنشر، وهي مقوّمات العمل الأدبي. وبغياب أحدها، تسقط ماهيته. وقد تناولها في فترة طغيان قوانين السوق، من أجل استقصاء الآثار السلبية على هذه الجوانب الثلاثة. ولذلك اتّبع الكاتب الأسلوب المباشر القاطع في عمل أشبه ما يكون بخطاب توعية وتحسيس موجَّه إلى الضمير الأوروبي حتى يكسر إملاءات السوق وقوانينه ويتحرّر من هيمنة منطق الربح التجاري، على أمل أن ينفتح الباب من جديد أمام التجارب الجمالية وآثارها على الوعي التي سبق لبول ريكور أن حلّلها في كتاب «الاستعارة الحيّة»، مبيّناً أنّ الأدبية هي «نظرة للعالم وكيفية للحضور فيه»، ويكفي هذا مكسباً.

هل يمكن أن نعتبر هذه المرافعة انعكاساً للرفاهة الغربية ومركزية دول أوروبا التي أحسّت بالحاجة إلى نبض الروح بعد أن غمرتها السلع وتاهت في مسالك الاستهلاك والتشيُّؤ؟ نعم، ففي ثنايا الكتاب إشارات عديدة إلى أنّ هذه الإشكالات تخصّ مجتمعات الوفرة، حيث لا ينشغل الفرد بتوفير لقمة العيش ولا بالفرار من ويلات الحروب والأزمات والتوترات كتلك التي تعصف بدولنا العربية. كما تؤكّد المرافعة أنّها تخصّ الكتابة- القراءة نشاطَين «للنُّخَب» الثرية التي لا تكابد لكسب رزقها اليومي، بل تبحث عن «معنى» وراء الوفرة والرفاه. إلّا أنّ هذه الآفات تشمل عالمنا العربي بالحدّة نفسها، ويكفي أن نستذكر ما قاساه الكتّاب والشعراء العرب من مآسي الفقر. وتكفي هنا الإشارة إلى بدر شاكر السياب الشاعر العراقي، وطاهر أبو فاشة كاتب المسرحيات المصري، ونجيب سرور إلى جانب أمل دنقل ومحمد المغوط ومحمود بيرم التونسي والقائمة طويلة، وكلّهم عاشوا في فقر رغم إبداعهم.

وأمّا في الثقافة العربية القديمة، فالأمثلة أكثر من أن تُحصى أشهرها أبو حيان التوحيدي الذي كان يستجدي الأمراء والوزراء من أجل دراهم يُمسِك بها رمقه، والفارابي الذي كان يقتات من عمل يده... وغيرهما كثير. وأمّا مَن برع في تصوير جدلية الأدب والذهب فهو بلا منازع الحريري والهمذاني في المقامات، حيث كان بطلاهما يوظّفان الأدب احتيالاً في اجتناء الثروات، وغالباً ما كانا ينجحان في ذلك. وهكذا، فإنّ هذا الكتاب بمثابة «مرافعة» من أجل الأدب ومتعة القراءة التي تعيد بناء المعنى تدريجيّاً، كما بين ذلك رولان بارت (الأستاذ المباشر لكومبانيون)، وهو ما يضفي «جمالية» تتعالى بالقارئ عن ثقل الحياة اليومية. والمرافعة، في جوهرها، دفاعٌ عن التأنّي في مقابل اللامبالاة والارتخاء الذهني، وهي دعوة إلى الاستثمار في اللغة وجمالياتها الخبيئة البطيئة، التي لا تنكشف إلّا بعد طول المعاشرة و«قرع الباب مرّةً بعد أُخرى» كما كان يقول عبد القاهر الجرجاني الذي تصدّى لقضايا بناء المعنى.

وهو ما يجعل من هذه المحاولة استنطاقاً لمصير الأدب في دوّامة التحوّلات الرقمية المتسارعة ونسقها الجنوني الساعي إلى الربح السريع، جرياً إلى الإحاطة بكلّ شيء في نقرة واحدة، وحتى بنبرة آمرة باتت الشاشات تلتقطها فتُنفّذها. وهذا من الأوهام العريضة للإنسان وحيد البُعد.

بطاقة

Antoine Compagnon ناقد أدبي فرنسي، عُرف بأعماله في مجال الأدب الفرنسي والنقد الأدبي، خصوصاً أدب القرن التاسع عشر؛ ومنه أعمال مارسيل بروست. من أبرز مؤلّفاته: «شيطان النظرية»، الذي ناقش فيه قضايا النقد الأدبي بأسلوب فلسفي، و«مفارقات الحداثة الخمس» حول قضايا الحداثة في الأدب والفكر الغربي، و«بروست ضدّ سانت بوف»، وهي دراسة نقدية لأعمال مارسيل بروست ومقارنتها بنظريات بوف في النقد التاريخي.

سؤال عن مصير الأدب في سياق يحكمه منطق الكسب السريع

بطء في إنتاج النصّ وإنضاجه تقابله سرعةٌ في التلقّي

أنطوان كومبانيون في باريس، تشرين الأوّل/ أكتوبر 2015 (Getty)

نظرة أولى

عن «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية»، صدر كتاب **حوارات في مسألة الدولة الديمقراطية الواحدة في فلسطين**. يضمّ العمل 19 مقابلة كان أجراها الباحث الفلسطيني الراحل محمد الحلاج (1932 - 2017)، أُجريت في الفترة بين آذار/ مارس ونيسان/ إبريل 1982، مع عدد من السياسيّين والكتّاب والمفكّرين والأكاديميّين الفلسطينيّين حول قضية الدولة الديمقراطية الواحدة في فلسطين، والتي ظهرت فكرتها في أواخر الستينيات: من بين هؤلاء: إبراهيم أبو لغد، وإلياس شوفاني، ومنير شفيق، وشفيق الحوت، وبسام أبو شريف، وفيصل حوراني، وبلال الحسن، ويوسف صايغ، وتيسير قبعة.

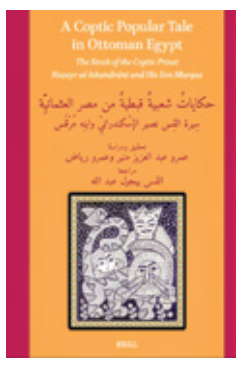

حكايات شعبية قبطية من مصر العثمانية: سيرة القسّ نصير الإسكندراني وابنه مرقس

عنوان كتاب صادر عن «منشورات بريل» بتحقيق عمرو منير وعمرو رياض، ومراجعة بيجول عبد الله. تغوص هذه الحكايات في حياة كاهن قبطي يُدعى نصير وابنه مرقس، مستكشفة الواجبات الدينية والأخلاق وديناميات العائلة. على عكس الأدب العثماني الرئيسي في ذلك الوقت، يقدّم هذا العمل، من خلال السرد الحيّ والحكمة الكتابية، نظرةً إلى المجتمع القبطي، ويناقش مسائل الصيام والثروة والقيم الاجتماعية، ويضيء تعقيدات الهوية الجماعية القبطية.

سوسيولوجيا الألتراس عنوان كتاب للباحث الجزائري مصطفى دحمان، صدر عن «دار الأيام للنشر والتوزيع». يناقش العمل ظاهرة الألتراس بوصفها إحدى أبرز الممارسات الجماعية لجمهور كرة القدم، متناولاً الخلفيات والمرامي والأبعاد المختلفة لمجموعات الألتراس الآخذة بالاتساع والتطوّر على المستويين المفاهيمي والسلوكي؛ مثل الولاء للنادي الرياضي والتعلّق بحركة المجموعة وثقافتها، كما يتناول التأثّر المتبادل بين هذه المجموعات حول العالم. يحاول الكتاب تقديم فهم أعمق لسوسيولوجيات الجماعات الرياضية بوصفها هويةً مستقلّة وضبط هذا الفاعل في النسق الرياضي.

مابماتيكس (خرائط الرياضيات): دليل عالم الرياضيات للتنقّل عبر العالم عنوان كتاب للباحثة بولينا روفينسكا، صدر عن «منشورات جامعة هارفرد». من خلال خطوات وأفكار عملية حول كيفية قراءة عالم الرياضيات لمختلف أنواع الخرائط عبر التاريخ، تضيء المؤلّفة كيف تتشابك الخرائط والرياضيات تشابكاً عميقاً، وكيف كانت كذلك دائماً، من خريطة تعود إلى القرن السادس عشر، وهي أداة ملاحة لا غنى عنها تبالغ في حجم البلدان الشمالية، إلى خرائط النقل العامّ التي تُرشد الركّاب وتربكهم، وكذلك كيف شكّلت الخرائط والرياضيات الإحساس بالفضاء والنظرة إلى العالم.

في كتاب **حدود المعرفة: في العلوم والتاريخ والعقل**، الصادر عن «دار الساقي» بترجمة إبراهيم قعدوني، يقترح المفكّر البريطاني أنتوني ك. غرايلينغ رحلةً فكرية عبر عوالم العلم والتاريخ وعلم النفس في محاولة لفتح آفاق جديدة للتفكير واستكشاف المعرفة البشرية ومواجهة التحدّيات التي تنتظر الإنسان في المستقبل. يجمع المؤلّف الذي يهتمّ في كتاباته بنظرية المعرفة والميتافيزيقيا والمنطق الفلسفي، بين الفلسفة والتاريخ، مستعرضاً التقدّم الهائل للبشرية في فهم الكون والذات، وطارحاً أسئلة حول ما نعرفه وما لا نعرفه بعد.

اشتهر كبار المرضى النفسيّين في التاريخ المعاصر بقوّة إجرامهم الاستثنائي، سواء كانوا طغاة أم نازيّين أم قتلة متسلسلين، إذ من الصعب الهروب من الانبهار الذي أحدثته القسوة الوحشية التي أظهروها تجاه ضحاياهم. في كتابه **وجوه الشر**، الصادر عن «دار شاكيلتون»، يتعمّق الصحافي الإسباني فيسينتي غاريدو في نفسيات شخصيات مثّلت، بشكل لا مثيل له، الأوجه المتعدّدة التي تَجسّد فيها الشر عبر التاريخ في أبشع صوره، من تجارب القتل الفظيعة إلى جرائم الحرب، مروراً بالإبادة الجماعية التي ارتكبها هتلر أو الطفل آكل لحوم البشر تشيكاتيلو.

عن «المرايا للثقافة والفنون»، وبتوقيع ريهام سالم، صدرت ترجمة عربية لمسرحية **دائرة الطباشير القوقازية**، التي يعدّها النقّاد ثاني أبرز نصوص برتولد بريخت المسرحية بعد «الأم شجاعة». العمل عن ملكة تتخلّى عن طفلها وتهرب خوفاً من الاضطرابات، ويظلّ الصغير في رعاية الخادمة حتى عودة الملكة إلى الحُكم ومطالبتها باسترداد ابنها، لكن الخادمة تتمسّك به، فيلجآن إلى القضاء، وعندما يقع القاضي في حيرة، يصنع دائرة بالطباشير، ويطلب منهما أن تمسك كلّ واحدة بذراع وتحاول جذبه إلى خارج الدائرة، وتنجح الملكة في انتزاعه، ولكن القاضي يحكم للخادمة.

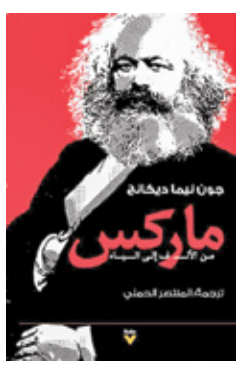

على الرغم من مرور أكثر من مئة وأربعين عاماً على رحيل كارل ماركس، ما يزال الفيلسوف الألماني (1818 - 1883) الأهمَّ في مجال تحليل الاقتصاد الرأسمالي والأوثق صلةً بقضايا العمل والثورة. ولذلك من الأهمّية بمكان استخلاص أعماله من التعليقات والملاحظات الهامشية الكثيرة والعودة إلى النصّ نفسه من أجل جعل قراءته أكثر يسراً، وفي متناول أكبر قدر من القرّاء، خصوصاً غير المتمرّسين منهم بفكره وعصره. هذا ما يرومه جون نيما ديكانج في كتابه **كارل ماركس من الألف إلى الياء**، الصادرة ترجمتُه عن «دار صفحة سبعة» بتوقيع المنتصر الحملي.